التشـــجيع ....

للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي . . . . . صاحب الرسالة ، أنت
لا تحب الثناء ، ولكن القراء يحبون الحقيقة ،
فأرجو أن تفسح لهم هذا الفصل « علي »

قرأت ما كتب عني وعن كتابي « أبو بكر الصديق » أستاذنا أديب العربية الأستاذ الزيات ، فقرأت فيه صفحة من كرم السجايا ، ونبل الأخلاق ، والتشجيع الذي يتفضل به الكبير على الصغير ، فيسدد به خطواته ، ويأخذ بيده ، ويصب من قوته في أعصابه ، حتى يقوى ويشتد ويتقدم ، فأحببت أن أعلق على هذا التقريظ بكلمة في التشجيع وماله من الأثر في العلوم والآداب ، وأن أفي للحق والواجب ، بأن أسجل للأستاذ وللرسالة ، ماله علينا من منة ، وما للرسالة علينا من يد ؛ وأنا وأصحابي هنا مدينون للرسالة ، بما نجد من قوة ، ومانحس من نشاط ، ما كنا لولا « الرسالة » نحس منه شيئاً ؛ وما رأينا قبل الرسالة مجلة أدبية راقية ، فتحت أبوابها لأدباء العربية جميعاً ، لاتفرق بين أبناء قطر وقطر ، وبلد وبلد ، ولاتزن الأدباء بالشهرة الواسعة ، ولكن بالانتاج القيم ، فكانت بذلك الرسالة ديوان العرب المشترك ، وسجل الأدب الحديث ، وجعلت من تراثها — وتراثها كل الناطقين بالضاد — أسرة واحدة ، تجمعها وحدة المبدأ ، ووحدة الغاية . وهل أجل في اثبات هذه الوحدة ، من رجل يكتب مقالة عن الأوزاعي من فلسطين ، فيعقب عليه آخر من الشام ، ويجيبه ثالث من مصر ، ويعلق عليها رابع من سنغافورة ثم يكتب في الموضوع خامس من دمشق ؟ . . . . كأن الرسالة قد محت بسحرها ما بين سنغافورة والشام من صحارى وبحار ، وجبال وأنهار فغدت هذه من تلك ، كالمقعد من المقعد في الصف الواحد ، يخرج رأي من هنا ، ورأي من هنا ، ويسمع الأستاذ وهو على منبره الرأيين ليقول القول الفصل ، وينطق بالكلمة الحاسمة

وما الأستاذ إلا الزيات وما المنبر إلا الرسالة !

* * *

أشكر للأستاذ هذه السنة التي يتبعها في تشجيع صغار الأدباء ، والأخذ بأيديهم ، لأن التشجيع مذ كان أصل التقدم ، وسبب النجاح ؛ وقد قرأت مرة أن مجلة انكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب ، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة ، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت : إنه التشجيع ! وقالت : انها في تلك السن ، بعد تلك الشهرة والمكانة ، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الامام وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير .

وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي ، وانقطاع سبيل التأليف ، هو فقدان التشجيع ، وذلك «الاحتكار العلمي» الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم ، وخنق كثيراً من العبقريات المهيئة للظهور ، فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة ، لايتعداها ولايجوز أن يتعداها ، هي : بيت العطار ، والحمزاوي ، والغزي ، والطنطاوي ، والشطي ، والخاني ، والكزبري ، والاسطواني ، والحلبي . . . وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائية ؛ في القيمرية والعمارة ، وزقاق النقيب ، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائري رحمة الله عليه وعليهم ؛ وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و « الاحتكار العلمي » ، فاذا سمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت ، وقدر وافيه النبوغ ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة ، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم ، والعدول به إلى التجارة ؛ أوليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت ؟ أوليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه ، تنحدر اليه الامامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً ، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار ، وهم لايزاحمون أبناء التجار على « حوانيتهم » ؟ أو لا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمن به عليهم هؤلاء العلماء ؟ . . .

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأنسوا منه الميل الى العلم ، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد ، والعقل الراجح ، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه — وكان أبوه امرأً تاجراً — ليسلك به سبيل التجارة ، ويتنكب به طريق العلم ، وجعلوا يكلمونه ،

ويرسلون اليه الرسل ، ويكتبون اليه الكتب ، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه ، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً ، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك ، ابن عابدين صاحب « الحاشية » ، أوسع كتاب فى فروع الفقه الحنفى

بل لقد أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلامة محمد بك كرد على عن العلم ، فبعثوا اليه بشقيقين من آل . . . بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما ، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالباً ـ فما زالا بأبيه ـ ولم يكن أبوه من أهل العلم ـ ينصحانه أن يقطعه عن العلم ، ويعلمه مهنة يتكسب منها ، فما فى العلم نفع ، ولا منه فائدة . . . ويلحان عليه ويلازمانه ، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا ، الأستاذ كرد على أبو النهضة الفكرية فى الشام وقائدها ، ووزير معارف سورية [1] ومفخرتها ، والذى من مصنفاته : خطط الشام ، وغرائب الغرب ، والقديم والحديث ، والمحاضرات ، وغابر الأندلس وحاضرها ، والادارة الاسلامية ، والاسلام والحضارة العربية . . . والمقتبس . . . ومن مصنفاته : « المجمع العلمى العربى بدمشق » ، ومن مصنفاته هؤلاء : « الشعراء والكتاب من الشباب » !

ولعل فى الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو كمحمد كرد على . وهاهو ذا العلامة المرحوم الشيخ سليم البخارى مات وماله مصنف رسالة فما فوقها ، على جلالة قدره ، وكثرة علمه ، وقوة فقه ، وشدة بيانه ؛ وسبب ذلك أنه صنف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة فى المنطق ، كتبها بلغة سهلة عذبة ، تنفى عن هذا العلم تعقيد العبارة ، وصعوبة الفهم ، وعرضها على شيخه ، فسخر منه وأنبه ، وقال له :

أيها المغرور ! أبلغ من قدرك أن تصنف ، وأنت . . وأنت . . ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة . . فكانت هى أول مصنفات العلامة البخارى وآخرها !

وقد وقع لى أنى كنت فى المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر ، فآخذ أبياتاً قديمة فأغير قوافيها ، وأبدل كلماتها ، وأدعيها لنفسى ، كما يفعل اليوم بعض الأدباء « التراجمة » حين يترجمون الكلمة الانكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً ، فكانت ترجمة اسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو « السارق » ! وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع . . .

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها ، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق ، حتى إذا اجتمع عندى كثير من القطع ، عرضته على أستاذ العربية ، وكان لسوء الحظ تركياً يسمى اسماعيل حقى أفندى ، يعلمنا النحو العربى باللسان التركى ! فلما قرأه سخر منى وسبنى وشتمنى ، وجاء من بعد أخى أنور العطار — فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع ، عرضه على الأستاذ كرد على رئيس المجمع العلمى العربى ، فأقام له حفلة تكريمية !

فكانت النتيجة أنى عجزت عن الشعر ، حتى لتثقل البحر بفعى أهون على من نظم خمسة أبيات ، وأن أخى أنور العطار غدا شاعر الشباب السورى ، وسيغدو شاعر شباب العرب !

* * *

وأول من سن سنة التشجيع فى بلدنا هو العلامة المرحوم مربى الجيل الشيخ طاهر الجزائرى ، الفيلسوف المؤرخ الجدلى ، الذى من آثاره المدارس الابتدائية النظامية فى الشام ، والمكتبة الظاهرية ، والأستاذ محمد كرد على بك ، وخالى الأستاذ محب الدين الخطيب . . . . ومما كتب فى ذم التثبيط :

« . . . وقد عجبت من أولئك الذين يسمون فى تثبيط الهمم ، فى هذا الوقت الذى يتنبه فيه الغافل . . .

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ولم ير أحد من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم ، فينبغى للجرائد الكبيرة ، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه العادة ، والتحذير منها ، ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم »

وكان الشيخ فى حياته يشجع كل عامل ، ولا يثنى أحداً عن غاية صالحة ، حتى لقد أخبرنى أحد المقربين منه أنه قال له : إذا جاءك من يريد تعلم النحو فى ثلاثة أيام ، فلا تقل له إن هذا غير ممكن . فتثقل عزيمته ، وتكسر همته ، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته

(١) سابقا

ثم ان التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المحبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؛ وربَّ ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء ، أو أديباً من أعاظم الأدباء ! وفى علماء القرن الماضى فى الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة ، إلى منصب الافتاء ، وكرسى التدريس تحت القبة .

نشأ الشيخ محمد اسماعيل الحائك عامياً ، ولكنه محب للعلم ، محب للعلماء ، فكان يحضر مجالسهم ، ويجلس فى حلقهم للتبرك والسماع ، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس فى الصف الأول ، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به ، لما يرى من دوامه وتبكيره ، ويسأل عنه إذا غاب ، فشدَّ ذلك من عزمه ، فاشترى الكتب يحيى ليله فى مطالعة الدرس ، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة ، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة ، وصار واحد زمانه فى الفقه والأصول ، وهو حائك على مهنته لم يتركها ؛ وصار الناس يأتونه فى محله يسألونه عن مشكلات المسائل ، وعويصات الوقائع ، فيجيبهم عما يعجز عنه فحولة العلماء . وانقطع الناس عن المفتى من آل العمادى فساء ذلك العماديين وآلمهم ، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشرَّ ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً ، فقد كان يحيا من عمله ، ويحيا الناس بعلمه ؛ وكان يمر كل يوم بدار العماديين فى « القيمرية » وهو على أتان له بيضاء ، فيسلم فيردون عليه السلام ، فمر يوماً كما كان يمر ، فوجد على الباب أخا للمفتى ، فردَّ عليه السلام ، وقال له ساخراً :

ـ إلى أين ياشيخ ! أذاهب أنت إلى (اسطمبول) لتأتى بولاية الافتاء ؟ وضحك وتحك من حوله ، أما الشيخ فلم يزد على أن قال :

ـ إن شاء الله !

وسار فى طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار فى الأزقة حتى عاد إلى داره ، فودع أهله ، وأعطاهم نفقتهم ، وسافر !

وما زال يفارق بلداً ، ويستقبل بلداً ، حتى دخل القسطنطينية فنزل فى خان قريب من دار المشيخة ، وكان يجلس على الباب يطالع فى كتاب ، أو يكتب فى صحيفة ، فيعرف الناس من زيه أنه عربى فيحترمونه ويجلونه ، ولم يكن الترك قد جنوا الجنة الكبرى بعدُ . . . فكانوا يعظمون العربى ، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذى اهتدوا به ، وصاروا به وبقومه ناساً . . .

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه ، فقال له يوماً رجل منهم :

ـ إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيرت علماءها ولم يجدوا لها جواباً ، والسلطان يستحثهم وهم حائرون ، فهل لك فى أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب ؟

قال : نعم

قال : سر معى الى المشيخة

قال : باسم الله

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها) ، فسأله الشيخ اسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلب بصره فيه بازدراء ، ولم تكن هيئة الشيخ بالتى ترضى ، ثم ألقاها اليه وانصرف الى عمله ، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التى كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس ، فاستخرج منها قصبة فبراها ، وأخذ القط فقطها ، وجلس يكتب الجواب بخط نسخى جميل حتى سوَّد عشر صفحات ما رجع فى كلمة منها الى كتاب ، ودفعها إلى الناموس ، ودفع اليه عنوان منزله وذهب . فلما حملها الناموس الى شيخ الاسلام وقرأها ، كاد يقضى دهشة وسروراً

ـ وقال له : ويحك ! من كتب هذا الجواب ؟

ـ قال : شيخ شامى من صفته كيت وكيت . . .

ـ قال : علىَّ به

فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يسلم على شيخ الاسلام ، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره ، منحنياً ، ثم يمشى متباطئاً حتى يقوم بين يديه . . . . إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التى نسيها الشيخ ، ولم يحفظ منها شيئاً

ودخل على شيخ الاسلام ، فقال له :

ـ السلام عليكم ورحمة الله ، وذهب فجلس فى أقرب المجالس اليه . وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الاسلام سرَّ بهذه التحية الاسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له :

ـ سلنى حاجتك

ـ قال : إفتاء الشام وتدريس القبة

ـ قال : هما لك . فاغدُ على غداً !

فلما كان من الغد ذهب اليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب اتانه ودار حتى مرّ بدار العماديين فاذا صاحبنا على الباب ، فسخر منه كما سخر وقال :

ـ من أين ياشيخ ؟

ـ فقال الشيخ : من هنا ، من اسطنبول . أتيت بتولية الافتاء كما أمرتني

ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالي بالفرمان ، فركع له وسجد وسلم الشيخ عمله في حفلة حافلة

* * *

ومن هذا الباب قصة الشيخ على كزبر ، وقد كان خياطاً في سوق المسكية على باب الجامع الأموي ، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس في الحلقة التي تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه ، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه ، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ وداب على المطالعة ، حتى صار يقرأ بين يدي الشيخ في الحلقة ، ولبث على ذلك أمداً وهو لا يفارق دكانه ولا يدع عمله ، حتى صار مقدماً في كافة العلوم

فلما مات الشيخ حضر في الحلقة الوالي والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرس الجديد ، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه . ففتشوا عليه فاذا هو في دكانه يخيط ، فجاءوا به ، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أعجب به الحاضرون وطربوا له . فعيّن مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر ، وبقيت الخطبة في احفاده إلى اليوم [1]

على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور ، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدق أني أهل لكل ما تفضل به عليّ الأستاذ من النعوت ، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله ، وأشكر للأستاذ الزيات باسمي واسم إخواني هنا ، أياديه علينا وعلى الأدب العربي ، الذي سمت وتسمو به « الرسالة » !

علي الطنطاري

(١) ومدرس القبة الرسمي اليوم شاب أوربي الزي ، أوربي اللسان ، أوربي الزوجة . لا يدخل المسجد مرة في العام ، ولكنه مدرس القبة !

وزارة المعارف العمومية

إعلان

تعلن وزارة المعارف أنها ستوفد هذا العام سنة ١٩٣٥ بعثة علمية من أربعة أعضاء للتخصص في اللغة الانجليزية لمدة سنتين بانجلترا وذلك لاعدادهم لتدريس اللغة الانجليزية بالمدارس الثانوية

ويشترط للترشيح للبعثة المذكورة :

١ — أن يكون المرشح حاصلا على دبلوم المعلمين العليا الأدبية أو معهد التربية العالي

٢ — أن يكون ممن مارسوا التدريس بمدارس الوزارة

٣ — أن يكون حاصلاً على ٦٥ ٪ على الأقل من مجموع درجات امتحان الدبلوم

٤ — أن يجتاز بنجاح امتحان المسابقة التحريري الذي سيعقد بمدرسة التجارة العليا في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ فيما يأتي : الانشاء الانجليزي — مبنى اللغة ومصطلحاتها — الترجمة الى اللغة الانجليزية — وأن يحصل فيه على ٧٠ ٪ على الأقل من النهاية العظمى للدرجات وعلى ٦٠ ٪ على الأقل في كل فرع على حدة

٥ — أن يجتاز اختباراً شفوياً في المطالعة والمحادثة الانجليزية يتبين منه حسن استعداده لمهمة تدريس هذه المادة وأن يحصل فيه على ٧٠ ٪ على الأقل من النهاية العظمى لمجموع الدرجات

وسيراعى في الاختيار نتيجة الامتحان التحريري والاختبار الشفوي وتقارير حضرات النظار والمفتشين ، فعلى من يرغب في التقدم للالتحاق بهذه البعثة أن يقدم طلباً على الاستمارة المدموغة المعدة لذلك . ويمكن الحصول عليها من مخازن وزارة المعارف بدرب الجاميز بالقاهرة نظير دفع مبلغ ثلاثين مليما . وترسل بعد ملئها مسجلة بطريق البريد إلى حضرة صاحب المعالي رئيس لجنة البعثات بوزارة المعارف على ألا يتأخر ورود الطلبات عن يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٥